



المطلب السادس

طلب التخفيف من العذاب



المطلب السادس

التخفيف من العذاب

قال رسول الله ﷺ : «إن في النار حيات كأمثال أعناق البخت تلسع إحداهن اللسعة فيجد حرها سبعين خريفاً، وإن في النار عقارب كأمثال البغال الموكفة تلسع إحداهن اللسعة فيجد حموتها أربعين سنة»^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الحميم حتى يخلص إلى جوفه فيسلت ما في جوفه حتى يمرق من قدميه وهو الصهرثم يعاد كما كان»^(٢).

قال المحاسبي: يحشر الله الأمم من الإنس والجن عراة أذلاء قد نزع الملك من ملوك الأرض ولزمهم الصغار بعد عتوهم، والذلة بعد تجبرهم على عباد الله في أرضه، ثم أقبلت الوحوش من أماكنها منكسة رؤوسها بعد توحشها من الخلائق وانفرادها ذليلة من هول يوم النشور من غير رية ولا خطية أصابتها حتى وقفت من وراء الخلق بالذلة والانكسار لذلك الجبار، وأقبلت الشياطين بعد تمرداها وعتوها خاضعة ذليلة للعرض على الملك الديان، حتى إذا تكاملت عدة أهل الأرض من إنسها وجننها وشياطينها ووحوشها وسباعها وأنعامها وهوامها تناثرت نجوم السماء من فوقهم وطمست الشمس والقمر فأظلمما عليهم ومارت سماء الدنيا من فوقهم فدارت من فوقهم بعظمها فوق رؤوسهم وهي خمسمائة عام.

(١) رواه أحمد والطبراني.

(٢) رواه الترمذي والبيهقي.

فيا هول صوت انشقاقها في سمعهم، وتمزقت وتفطرت لهول يوم القيامة من عظم يوم الطامة ثم ذابت حتى صارت مثل الفضة المذابة كما قال الجبار تبارك وتعالى: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ (سورة الرحمن: ٢٧)، وقال: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿ (سورة المعارج: ٨-٩) أي: كالصوف المنفوش وهو أضعف الصوف، وهبطت الملائكة من حافاتهما إلى الأرض بالتقديس لربها.

فتوهم انحذارهم من السماء لعظم أجسامهم وكثرة أخطارهم وهول أصواتهم وشدة فرقهم من خوف ربهم، فتوهم فزعك حيثذ وفزع الخلائق لتزولهم مخافة أن يكونوا قد أمروا بهم فأخذوا مصافهم محدقين بالخلائق منكسة رؤوسهم لعظم هول يومهم قد تسربلوا أجنحتهم ونكسوا رؤوسهم بالذلة والخضوع لربهم وكذلك ملائكة كل سماء إلى السماء السابعة، قد أضعف أهل كل سماء على أهل السماء الذين قبلهم في العدة وعظم الأجسام والأصوات، حتى وافى الموقف أهل السماوات السبع والأرضين السبع.

كسيت الشمس حر عشر سنين ثم أدنيت من الخلائق قاب قوسين أو قوس فلا ظل ذلك اليوم إلا ظل عرش الرحمن، فمن بين مستظل بظل العرش وبين مضح بحر الشمس قد صهرته واشتد فيها كربة وأقلقته.

وقد ازدحمت الأمم وتضايقت ودفع بعضها بعضاً واختلقت الأقدام وانقطعت الأعناق من العطش، قد اجتمع عليهم في مقامهم حر الشمس مع وهج أنفاسهم وتزاحم أجسامهم ففاض العرق منهم على وجه الأرض ثم على أقدامهم ثم على قدر مراتبهم ومنازلهم عند ربهم من السعادة والشقاء، فمنهم من يبلغ العرق منكبيه وحقوقه ومنهم إلى شحمة أذنيه، ومنهم من أجمه العرق فكاد يغيب فيه ^(١).

فتوهم نفسك يا أخي وأنت بين يدي منكر ونكير وأصواتهما كالرعد القاصف وأعينهما كالبرق الخاطف، وأنيابهما كالصياصي، يخرج لهب النار من أفواههما ومناخرهما ومسامعهما، يكسحان الأرض بأشعارهما، ويحفران الأرض بأظفارهما، مع كل واحد منهما عود من حديد لو اجتمع عليه مَنْ في الأرض ما حركوه، وتخيل نفسك وقد وضعت في القبر وحيداً فيقعدانك في قبرك ويتهرانك انتهارة يتقعقع منها عظامك، وتزول أعضاؤك من مفاصلك فتخر مغشياً عليك، ثم يقعدانك ويقولان لك: إنك في البرزخ فاعقل حالك واعرف مكانك، ويتهرانك ثانية ويقولان لك: يا هذا ذهبت عنك الدنيا وأفضيت إلى معادك فأخبرنا من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فإن كنت مؤمناً بالله لقتك الله حجبتك فتقول: الله ربي ونبيي محمد وديني الإسلام فيتهرانك عند ذلك انتهاراً يرى أن أوصالك تفرقت وعرقك قد تقطعت فيثبتك الله بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويلقنك الأمان ويدراً عنك الفزع فلا تخافهما، فإذا فعل الله بك ذلك استأنست إليهما فيقولان لك: صدقت وبررت أقر الله عينك وثبتك، أبشر بالجنة وبكرامة الله، فيتسع عليك قبرك مد بصرك ويفتحان لك بابين من الجنة فيدخل عليك من روح الجنة وطيب ريحها ونضرتها في قبرك ما تعرف به كرامة الله تعالى لك وإن كنت غير ذلك فلك نقيض النعيم والتشيت ولا تلومن إلا نفسك!.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ (٤٩) قَالُوا أَوْ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ (سورة غافر: ٤٩-٥٠).

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ لما علموا أن الله عز وجل لا يستجيب منهم ولا يستمع لدعائهم بل قد قال: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ (سورة المؤمنون: ١٠٨). سألوا الخزنة وهم كالسجانين لأهل النار أن يدعوا الله لهم أن يخفف عن الكافرين ولو يومًا واحدًا من العذاب فقالت لهم الخزنة رادين عليهم: ﴿أَوْ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: أو ما قامت عليكم الحجج في الدنيا على السنة الرسل؟

﴿قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فادْعُوا﴾ أي: أنتم ادعوا لأنفسكم فنحن لا ندعو لكم ولا نسمع منكم ولا نود صلاحكم ونحن منكم براء ثم نخبركم أنه سواء دعوتهم أو لم تدعوا لا يستجاب لكم ولا يخفف عنكم، ولهذا قالوا:

﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي: إلا في ذهاب لا يقبل ولا يستجاب^(١).

قال سيد قطب: وحين أدرك هؤلاء وهؤلاء أنه لا ملجأ من الله إلا إليه اتجه هؤلاء وهؤلاء لخزنة جهنم في ذلة تعم الجميع وفي ضراعة تسوي هؤلاء بهؤلاء: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ إنهم يستشفعون حراس جهنم ليدعوا ربهم في رجاء يكشف عن شدة البلاء: ﴿دَعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا

(١) «تفسير ابن كثير» (ج٤، ص: ٨٣).

يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿... يَوْمًا، يَوْمًا فقط، يَوْمًا يلتقطون فيه أنفاسهم ويستريحون. فيوم واحد يستحق الشفاعة واللهفة والدعاء.

ولكن خزنة جهنم لا يستجيون لهذه الضراعة البائسة الذليلة الملهوفة فهم يعرفون الأصول ويعرفون سنة الله ويعرفون أن الأوان قد فات، وهم لهذا يزدون المعذنين عذابًا بتأنيبهم وتذكيرهم بسبب هذا العذاب: ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ﴾ وفي سؤاله وفي جوابه ما يغني عن كل حوار وعندئذ نقض الخزنة أيديهم منهم وأسلموهم إلى اليأس مع السخرية والاستهتار: ﴿قَالُوا فَادْعُوا﴾ إن كان الدعاء بغير من حالكم شيئًا فتولوا أنتم الدعاء.

وتعقب الآية قبل تمامها على هذا الدعاء: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ لا يبلغ ولا يصل ولا ينتهي إلى جواب إنما هو الإهمال والازدراء للكبراء والضعفاء على سواء^(١).

﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ﴾ ؟ إلزام للحجة وتوبيخ وأنهم خلفوا وراءهم أوقات الدعاء والتضرع وعطلوا الأسباب التي يستجيب الله بها الدعاء.

﴿قَالُوا فَادْعُوا﴾ فإننا لا نجتري على ذلك ولا نشفع إلا بشرطين: كون المشفوع له غير ظالم، والإذن في الشفاعة، مع مراعاة وقتها وذلك قبل الحكم الفاصل بين الفريقين.

وليس قولهم فادعوا لرجاء المنفعة ولكن للدلالة على الخيبة، فإن الملك المقرب إذا لم يسمع دعاؤه فكيف يسمع دعاء الظالم^(٢).

(١) «في ظلال القرآن» (ج٥، ص: ٣٠٨٤، ٣٠٨٥).

(٢) «تفسير الزمخشري» (ج٣، ص: ٤٣١).

قال تعالى: ﴿ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ (سورة الشورى: ٢٢).

﴿ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا ﴾ أي: في عرصات القيامة.

﴿ وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ أي: الذي يخافون منه واقع بهم لا محالة، هذا حالهم يوم معادهم وهم في هذا الخوف والوجل.

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ فإين هذا من هذا؟ أي أين من هو في العرصات في الذل والهوان والخوف المحقق عليه بظلمه ممن هو في روضات الجنات فيما يشاء من مآكل ومشرب وملبس ومسكن ومناظر ومناكح وملاذ وما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

قال ابي طيبة: إن الشرب من أهل الجنة لتطلهم السحابة فتقول: ما أمطركم؟ قال: فما يدع داع من القوم بشيء إلا أمطرتهم، حتى أن القائل منهم ليقول: أمطرتنا كواعب أترابا.

﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ أي الفوز العظيم والنعمة التامة السابعة الشاملة العامة^(١).

قال سيد قطب: يعرض هؤلاء الظالمين في مشهد من مشاهد يوم القيامة يعرضهم خائفين مشفقين خائفين من العذاب وكانوا من قبل لا يشفقون بل يستعجلون

(١) «تفسير ابن كثير» (ج٤، ص: ١١١).

ويستهترون: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا﴾ والتعير الجميل يجعل إشفاقهم ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ فكأنما هو غول مفزع وهو هو الذي كسبه وعملوه بأيديهم وكانوا به فرحين! ولكنهم اليوم يشفقون منه ويفزعون ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ وكأنه هو القلب بذاته عذاباً لا مخلص منه وهو واقع بهم!.

ونجد في الصفحة المقابلة الأخرى - نجد المؤمنين الذين كانوا يشفقون من هذا اليوم ويخافون نجدهم في أمن وعافية ورخاء: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾.

والتعير كله رخاء يرسم ظلال الرخاء: ﴿فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ بلا حدود ولا قيود^(١).

(١) «في ظلال القرآن» (ج٥، ص: ٣١٥٣).

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ (سورة الزخرف: ٧٤-٧٨).

لما ذكر الله تعالى حال السعداء ثنى بذكر الأشقياء فقال: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ﴾ أي ساعة واحدة.
﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي: آيسون من كل خير.

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ أي: بأعمالهم السيئة بعد قيام الحجة عليهم وإرسال الرسل إليهم فكذبوا وعصوا فجوزوا بذلك جزاءً وفاقاً، وما ربك بظلام للعبيد.

﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ﴾ وهو خازن النار.

﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ أي: يقبض أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه فإنهم كما قال تعالى: ﴿لَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ (سورة فاطر: ٣٦)، وقال عز وجل: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ (سورة الأعلى: ١١-١٣).

فلما سألوا أن يموتوا أجابهم مالك: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُثُونَ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: دمكت ألف سنة، ثم قال: إنكم ما كُثُونَ.

وقيل: أي لا خروج لكم منها ولا محيد عنها ثم ذكر سبب شقوتهم وهو مخالفتهم للحق ومعاندتهم له فقال: ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ﴾ أي: بيناه لكم ووضحناه وفسرناه.

﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ أي: كانت سجاياكم لا تقبله ولا تقبل عليه وإنما تنقاد للباطل وتعظمه وتصد عن الحق وتأباه وتبغض أهله فعودوا على أنفسكم بالملامة واندموا حيث لا تنفعكم الندامة^(١).

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ خَالِدُونَ﴾ هو عذاب دائم وفي درجة عسيرة شديدة لا يفتر لحظة ولا يبرد هنية ولا تلوح لهم فيه بارقة من أمل في الخلاص ولا كوة من رجاء بعيد فهم فيه يائسون قانطون: ﴿لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ كذلك فعلوا بأنفسهم وأوردوها هذا المورد الموبق ظالمين غير مظلومين: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ ثم تتناوح من بعيد في الجو صيحة... صيحة تحمل كل معاني اليأس والكرب والضيق.

﴿وَنَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ إنها صيحة متناوحة من بُعد سحيق من هناك من وراء الأبواب الموصدة في الجحيم، إنها صيحة أولئك المجرمين الظالمين. إنهم لا يصيحون في طلب النجاة ولا في طلب الغوث فهم مبلسون يائسون، إنما يصيحون في طلب الهلاك الهلاك السريع الذي يريح، وحسب المنايا أن يكن أمانيا!...

وإن هذا النداء ليلقي ظلاً كثيفاً للكرب والضيق، وإننا لنكاد نرى من وراء صرخة الاستغاثة نفوساً أطار صوابها العذاب وأجساماً تجاوز الألم بها حد الطاقة فانبعثت منها تلك الصيحة المريعة: ﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾.

ولكن الجواب يجيء في تيسر وتخذيّل وبلا رعاية ولا اهتمام: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ مَأْكُونُونَ﴾ فلا خلاص ولا رجاء ولا موت ولا قضاء... إنكم مأكثون^(٢)!

(١) «تفسير ابن كثير» (ج٤، ص: ١٣٥).

(٢) «في ظلال القرآن» (ج٥، ص: ٣٢٠٢).